

عانى كثير من المصريين إبان عهد نظام حسني مبارك من اضطهاد جهاز مباحث أمن الدولة سيء الصيت، فلمجرد الاشتباه أو حتى الخطأ قد يجد المرء نفسه داخل مكان لا مكان فيه لآدمية الإنسان، أو الحفاظ على الكرامة، فالكل ينظر "الباشوات" بحسب التسمية المصرية لضباط الشرطة مدانين حتى أن يبيت العكس، ولا أحد يجرؤ أن يفتح فمه إلا للصراخ من شدة الألم والتعذيب.

كثير من تلك المآسي تم كشف النقاب عنها في أعقاب ثورة 25 يناير التي أطاحت بمبارك، وكانت من أهم ثمارها حل جهاز "أمن الدولة"، وكان هذا الأمر فرصة لمن ذاقوا الولايات وتعرضوا للتعذيب أن ينفسوا عن آلامهم عليها تخفف من الأوجاع التي سكنت أجسادهم، دون أن يكون هناك من رأفة في قلوب كانت أشد قسوة من الحجارة. هشام سامي، شاب دفع ثمن دخول ضباط مباحث أمن الدولة إلى مسكنه بطريق الخطأ، حيث اعتقل ضمن آخرين تم توقيقهم على خلفية الاشتباه بوقوفهم وراء التفجير الذي استهدف كنيسة الزيتون بالقاهرة في مايو 9002، عاش رحلة دمرت حياته، تعرض خلالها لكل ألوان التعذيب وتعرف على أدواته، ما بين "التونيك" و"الدبلة" و"الخرارة" وغرفة "الطبلية" و"السرير"، كان أحد ضيوف حفلة تعذيب جماعي، فيها كل الأدوات السابقة بالإضافة إلى "الشوم"، هذه الحفلة يطلق عليها "حفلة رأس السنة" وتتم على سطوح مبنى أمن الدولة، الأسلاك الكهربائية مع المياه، هي أبشع ما عانى منه، وأربعه التهديد بهتك العرض، ألف عشرات القصص الوهمية لينجو بحياته. تفاصيل مرعبة نشرتها صحيفة "المصرى اليوم" على لسان هذا الشاب تكشف إلى أي مدى كانت تمتهن كرامة المصريين.

قال هشام سامي: بدأت التفاصيل المرعبة عندما استيقظت مفزوعا من النوم على صراخ والدتي وهي تقول «الحقونا حرامية بيتهجموا علينا ياناس» أسرع وأنا أرتدى «الجلابية المغربية أم زعبوت» متجها إلى دولا بي لأحضر سلاحاً أبيض للدفاع عن نفسي وأهلي، واقتربت من باب الشقة لأنظر من العين السحرية لأجد أمامي ما لا يدل على أنهم «حرامية» خالص وقمت بفتح الباب وطلبت من والدتي الهدوء، وعرفوني بأنفسهم، وقبل أن يفتح الباب بالكامل، امتدت يد سبقت صاحبها وعلقتني من كتفي كما لو كنت «فار ممسوك من ديله».

وبنفس التعليقة وجدت نفسي في منتصف الصلاة وظهر ٤ أشخاص مدججين بالسلاح يليه شخصان آخرا مهمتهما تأمين السلم، وبعد لحظات من الصمت وجدت أحدهم يزق «ساعة إلا ربع على الباب يا ولاد ال.....» له كنت بتعمل إيه، بتخبى إيه؟

وصرخت في أُمى دون شعور «حد يسبب الباشا على الباب ساعة إلا ربع حرام عليكى له كده؟» وصدمتني عندما ردت ببساطة شديدة (معلش يا بنى كنت فاكراكم حرامية، تصبحوا على خير).

فقلت في نفسي «على خير دا على اعتبار أن الموجودين دول خيلانى وأولاد عمى ماتسيبينيش يا أُمى) لكنها دخلت وأغلقت عليها الباب وتركتني كالفرسة يفعلوا بها ما يشاءون.

وسادت من جديد حالة من الصمت لثوان معدودة وكسر حاجز الصمت صوت قائدهم وهو يأمرهم بتفتيش الشقة بالكامل باستثناء غرفة والدتي وأنا معلق بنفس الطريقة ووجدوا كتاب «جامع الصحيحين وعلى خطى الحبيب وشرايط دينية متفرقة كلها عن الصلاة والتوبة»، أما صاحب الغنيمة الكبرى فوجد تحت سريري طبق غسيل كبير فيه كمية «سديها» معظمها أسطوانات تعليم «جرافيك وبرامج مليت ميديا» وآخر حاجة وصولوا لها كانت جهاز «الكمبيوتر» وسألني كبيرهم: «أنت بقى فلان الفلانى» - وكان اسم واحد تانى خالص - وقلت: والله مانا يا باشا دا الواد ابن الت.....الى ساكن قدامنا ولو مش مصدقنى اسأل الدنيا كلها، سكت برهة وقال «أمال مافتحتش على طول له ساعة إلا ربع كنت بتعمل إيه؟». قلت له: يا باشا والله أصل أنا هاشركم الموضوع دى الحاجة كانت تعبانة وما كملتش وقال هشام: تحركت العربية إلى أن وصلت إلى كأنها داخله مكان ولقيت العساكر بيجهزوا أنفسهم ويقولولنا جهزوا أنفسكم يا بنى انت وهو وبدأوا ينزلونا واحد ورا التانى ويوجهونا بالصوت (حاسب يا بنى هنا فى سلمة ... حاسب يا بنى هنا فيه مطب على دماغك ودماغ اللى خلفك، ووصلنا إلى غرفة ملهاش معالم والدنيا كانت هس هس وقالوا لنا كل واحد يفك الربطة اللى على بقه واللى على عينيه، الكلام ده كان الساعة ٦ الصبح تقريبا. وقعدنا كده للساعة ٩ الصبح وكنا متقسمين مجموعات، كل مجموعة حوالى ١٠ معاها ٢ أمناء وقالوا لنا «اللى عاوز

ياكل يقول واللى عاوز يروح التواليت يقول واللى عاوز يشرب يقول، كل واحد منا قال على طلباته وبعدها بقى قالولنا «اجهزوا علشان ننام وربطوا كل واحد من رجله ويديه وعينه».

والساعة الواحدة ظهرا بدأ أول مشاهد والذي جعلنا نتأكد أننا فعلا فى أمن الدولة، كل واحد صحى على ضربه شكل من الضباط الللى حضروا وهم يزعموا وببشتمونا بألفاظ قبيحة ونادوا علينا واحد واحد ورسونا صف واحد ورا واقفين حوالى ساعة وقطع الصمت نداء على واحد ما أعرفوش ولقيته بيقول «موجود» والأمناء يقولوا له «معلش يا فلان نصيبك كده ريحهم وقول لهم على الحقيقة» والواد يقول «والله قلت كل الللى عندى يا باشا إنتوا مش عاوزين تصدقوني ليه؟» واختفى صوته لمدة ربع ساعة وفجأة سمعنا صوت - غير بشرى - يقول (وحياة أمك يا بن الت... لأخليك تقلب سوسن هاتولى السرير) بعدها كل واحد من الللى كانوا واقفين فى الصف ركبته كانت بتحضن فى ركة الللى جنبه وفاتت دقائق معدودة إلى أن جابوا السرير وسمعنا... اه... اه... اه... وصوت يقاطع «ماتعرفش حاجه يا بن الت... أنا بقى مش عاوز أسمع منك حاجة».. وتأتى صرخة الشاب: «اه... اه... اه... يا باشا والله ما عرف أبوس إيدك ارحمنى».

وكان وسط التعذيب، الضابط يقول للعساكر «حد يا بنى يمسح مكان الدم الللى عمال يقع من رجله»... وشوية يقول «هاتلى يا بنى إبرة التنجيد علشان أخيط بيها دماغه».

واستمر التعذيب حوالى ٤ ساعات لما أعصابنا كلنا بقت فى الأرض ومش قادرين نقف على رجلينا نهائى، وراحوا فاكين الرباط الللى على عينينا علشان نشوف بالمرّة وخرجوا الولد من غرفة التعذيب وجابوه عندنا غرفة الاستقبال، كان جاي زحف وكلنا بصينا لبعض والأمناء يقولوا له «يا بنى ريح نفسك وريح الباشا وقوله الللى هو عاوزه» والواد يقول «والله قلت كل الللى أعرفه».

وقال شاهد رحلة الموت: فجأة جابوا ثلاثة من بره وقالوا لهم «اقلعوا هدمكم الخارجية يا بنى انت وهو»... ونفذوا دون أدنى اعتراض وقعدوهم على الأرض وبدأو ينادوا أساميههم ورا بعض ودخلوا غرفة التعذيب ولقيت الأمناء بيقولوا لنا «قوم يا ابنى أنت وهو اقفوا صف واحد وطلعونا فى الطرقة وكانت هذه مرحلة متقدمة جدا معناها أننا اقتربنا من اللحظة الحاسمة وبدأنا نسمع أصواتاً متلاحقة من الصراخ من مكانين مختلفين وعرفنا أنهما غرفتان والصوت - غير البشرى - يقول «يا بن الت... مش هاتخرج من هنا إلا لما تقر بكل الللى تعرفه عن الناس دى، ريح نفسك».

وتذكر هشام اللحظات القاسية وقال: لقيت الضابط ضربنى بالشلوت فى رجلى وقال «الدور عليك يا بن الت...» أنا أغمى علىّ وما عرفتش الللى حصل بعدها غير فى تالت يوم وصحيت على شلوت وبعد الشلوت لقيت الضابط بيقول «اجهز يا هشام علشان هاندردش مع بعض شوية قوم كده ونفص نفسك».

ودخلت الغرفة المقابلة التى يطلق عليها «الطبلية» أو «السينما» نظرا لثبات مواعيد التعذيب زى السينما بالضبط، كانت رائحتها مزيجاً ما بين رائحة «برفان» الضباط ورائحة احتراق الجلد بالكهرباء ورائحة الدم السائل على الأرض.

الضابط قال (ها يا هشام إيه الللى حدفك علينا وإيه حكايتك) وبدأت فى سرد الللى حصل بالتفصيل وإزاي أنهم أخذوني من البيت من غير ذنب وأنا أصلاً مكنتش المقصود، وعمال أشرح وأتظلم من الللى حصل وأقوله شوفت يا باشا «لقيته بيقول» اخرس يالا، ماسمعش صوتك خالص يا بن الت... بص يا بنى أنا ها أشرب سيجارة ولو خلصت السيجارة دى قبل ما تقولى كل حاجة تعرفها أنا ها قوم من مكانى».

وبدأت أقوله تانى: والله يا باشا أنا مليش دعوة بأى حاجة دا الواد الللى قدامنا هو الللى كان «والسيجا»... خلصت، وسمعت صوتاً حيوانياً يقول: «خلص الكلام يا بنى» استعداداً لأسوأ يوم فى عمرك، أنت عارف أنا مين يا... أنا هشام هارووون».

وأفقت على صوت قدم تهز الأرض وتقرب منى وتقول «أنا مش عاوز أسمع منك حاجة» وقرب وبدأ يشغل الصاعق الكهربى (التونيك - أشهر جهاز تعذيب فى أمن الدولة) ووجدت نفسى على الأرض من أثر أول صعقة فى ذراعى

وكنت لسه بـ«الجلابية المغربية أم زعبوت» وقالهم «قلعوه الجلابية» استمرت الزغزغة الكهربائية لمدة أربع ساعات «فحت وردم وتحقيق» وضمن التحقيق قالوا «إدينا اسم اتنين تلاتة شاكك فيهم» فقلت «أنا ما عرفش» وشغل التونيك» لما قولتله ٣٦ اسماً، وبعدها جاب إبرة التجديد وبدأ يظبط في راسي وقعدت أعيط وواضح أني صعبت عليه فقال «طب خلاص هاتوله حبوب منع الألم علشان مايحسش بأى وجع خالص».

وقال هشام: خرجوني برة علشان يجهزوني للعبة اللي بعدها لأنه لازم أجرب كل اللعب طبعاً، وقلت لهم «عاوز أشرب» قالوا «أتا جسمك واخذ كمية كهرباء تقوم السد العالي مينفعش» قلت عاوز آكل، قالوا ماينفعش «انت هاتدخل تانى ولازم تبقى بطنك فاضيه علشان ماتتبعش» «فقلت» طيب أتشقلب أو أمشي على الحيط.

وعدت حوالي ٤ ساعات ما بين ألم وضحك على الزغزغة اللي حصلت ولقيت الأمانء بيقولوا «قوم يا هشام الضباط عايزينك» وقبل أن أدخل نادى على أحدهم (هشام ابن فلان) جالك «لبس» وعرفت أن ماما صحيت من النوم، الغريبة أنها كانت باعته طاقم تقريبا يوحى أى فى مصيف مش (برمودا وتيشرت كت) والكارثة أن ماما باعته (٢ هوهوز + ٣ بسكوت بييمبو + ٢ كيس شيسى بالفراخ + واحدة كورواسون مولتو+ مصابــــــــــــة).

ودخلت غرفة التعذيب وكانت ريحتها مختلفة عن الأولى وكمان كان فيه تكييف ودار الحوار الآتي:

صوت غریب: ایہ یا ہشام عامل ایہ دلوقتی؟

وردیت: (والله يا باشا أنا قلت كل اللي عندى والله أن ماخبيت حاجة خالص حتى اسأل هشام باشا).

قال هشام باشا: رد على الباشا عدل يا بن الـ... الباشا يقولك عامل إيه دلوقتى؟».

وردیت: الحمد لله یا باشا.

ولقيت صوت ضربة مدوية على ظهرى وصوت مريب يقول «بقولك إيه اللي جابك هنا يا روح مامتك، خلى بالك الكلام اللي هاتقوله قبل الكهرا محسوب ليك واللى هاتقوله تحت الكهرا محسوب عليك».

وردیت: بص يا باشا ها والله اللي حصل إنى أصلا كانوا واخذنى غلط، دا مش أنا المطلوب والله يا باشا حتى اسأل سيف بيه- الطابط اللي أخذنى من البيت- وسمعت سيف بيه بيقول: « غلط إيه يا بن الــــ..... أنت متبلغ عنك ولقينا عندك أفلام كيفية تركيب القنبلة وكيفية تفجيرها عن بعد وأفلام عن الجهاد فى أفغانستان والبلاوى اللي لاقيناها عندك دى كلها كانت عندنا معلومات مسبقة بيها قبل كده ما تصحى كده أمال ورد على الباشا عدل.»

وردت «دا كتير والله كتير بجد، قبلة إيه أنا مش بعرف أركب الشاحن فى الموبايل صح» «والله أنا معرفش أى حاجة يا باشا... أنا عاوز أروح عند أمى».

وقال سيف: «أمك... دانتا هايطلع أمك دي ياباشا قعدتنا ساعة إلا ربع على الباب علشان تديله فرصة يخبي المنشورات والكتب والسى دي اللي عليها أفلام القبلة والتفجير والجهاد فى أفغانستان والعراق.»

وسمعت صوتاً أول مرة أسمعه قال: خلاص الكلام يا بنى مدام دخلت هنا صح أو غلط يبقى لازم تتكلم ولازم تتحاسب، خلصنا بقى علشان أنا زهقت وهاقوم أطلع..... أمك لو ماتكلمتش».

وقال هشام بيه: ما تنطق يا بني ولا نجيب السرير ونخلص؟

وردیت: ھا قول یا باشا ھا قول واللہ بس بلاش والنبی اٰی کھربا تانی انا عامل عملیات فی بطنی وانت فرمتھا ضرب وکھربا ومش حامل اٰی لمسہ تانی.

ورد هشام بيه: بقولك إيه يا روح أمك، مش هاتصعب علينا إحنا بقالنا ٥١ سنة بنعذب ناس مش أنتا اللي هاتصعب

خبطة واحدة».

وقال «مش عاوز أسمع صوتك خالص لغاية ما أقولك يا بن الس..... وبعدها شالوا الطرف اللي كان تحت وحطوه فى اليد الثانية فى نفس المكان وعملوا دايرة كاملة من اليد اليمين إلى الشمال.

وقال ضحية التعذيب: ودخلنا فى مرحلة جديدة من التحقيق عندما قرروا استخدام أسلوب أكثر شراسة، جاءوا بالمياه ورشوها على وغرقوا جسمى بها من أوله لآخره ووصلوا الكهرباء فى أصابعى علشان أموت من الخوف قبل الألم.. وكنت فعلا تعبت وقلت لهم «هاقوووول بجد المرة دى هاقوووول» وبصراحة لقيت نفسى أخترع قصص وهمية من نسيج خيالى وأسماء وهمية ولقيت نفسى بأقول عن وقائع أنا أول مرة أعرفها وكانوا عاملين أنفسهم مصدقين وشغلوا الكهرباء على آخرها لدرجة إنى لتانى مرة أغمى على.

ولقيت هشام بيه بيقول للعساكر: «فكوه يا بنى إنت وهو وبص يا بن الس... إنت دلوقتى هاتخرج لغاية لما نحتاجلك عاوزك كده تركز أوى علشان لما نسألك تبقى مصحصح معايا كده».

ولقيت الأمين محمد الأمور قالى يخرب بيت عقلك إنت لسه فيك نفس تنطق، يا بنى المفروض إنك تكون ميت من إمبارح وباقى الأماناء مردوش على كل دا غير بكريزة ضحك ملهاش أول من آخر ونزلوا الغرف اللي تحت الأرض وجابولى مياه وعصير.

وأنهى هشام حديثه عن قصته مع أمن الدولة، التى كتبها فى رواية، يريد أن يحولها إلى فيلم سينمائى قائلا: صحيت تانى يوم الساعة ٨ صباحا والساعة ١٠ صباحا قال لهم هشام بيه هاتوه وكتفوه على الأرض بحيث إنه يبقى شبه حرف «إكس» وقد كان والله فضل يطلع على بطنى ويهرس فيها برجله لدرجة إن العساكر سابونى.. وهو وقع على الأرض وصرخت فيه «إنت بتعمل فى كده ليه، أنت إيه ماتعرفش حاجه اسمها رحمة. ربنا ينتقم منك»، هو سمع كده من هنا وقالهم هاتو «التونيك» وقام سايب جسمى كله وافترى على أضعف حته فيه ولمدة ٤ ساعات فى مكان واحد ميحتملش لمسة وأقوله إرحمنى والنبي أنا بموت وهو ولا هنا ولا حياة لمن تنادى.

وأخيرا خرجونى الساعة ٢ ظهرا.. ولبسونى هدومى. والساعة ٣.٨ مساء. وراحو مغميين عينا كلنا وقالولنا يالله يا بنى كله يجهز لحفلة رأس السنة.. وعرفت أنها (حفلة تعذيب جماعى) وأخذونا على مكان كان واضح إنه سطح المبنى اللي كنا فيه وواضح إنه مجهز بجميع وسائل التعذيب اللي ممكن تخطر على بال أى حد خلقه ربنا، الدنيا كانت برد جدا جدا وعملوا ٤ أو ٥ أركان كل ركن فيه أداة تعذيب ومعها الضباط والأماناء والعساكر المختصين بيها والشباب بيدلوا عليها.. بس المرعب إن التعذيب كان جماعى وكانت الأصوات وصدى الصوت مع الليل والهدوء والهوا والسقيع والمياه اللي كانت بتترش علينا علشان نحس بالكهرباء أكثر. بالإضافة إلى الغباء اللي كان فى ركن الشوم.. اللي بيضرب كان عسكري مفهمينه إننا أعداء الوطن. بجانب التهديدات بهتك عرض البعض، التى كانت تصل أحيانا إلى حد التنفيذ الجزئى والحفلة خلصت الساعة ٢ بعد منتصف الليل.

ونزلنا تحت الأرض لأبدأ رحلة جديدة ومشينا فى ممر كده قصير ودخلنا فى مكان كأنه صالة كبيرة كده وطبعا كنا لسه متغميين وقعدنا كده لغاية أذان الفجر، وبعدها دخلونا فى غرف وفكوا الغماية من على عينينا وفوجئت إن شباب شارعنا والمناطق المجاورة مشرفين جوا وكانوا معايا فى الحفلة كنا حوالى سبعة.

وفى نهاية رحلة «الموت» حدثت مواجهات وتعذيب للجميع ويتم استدعاء الواحد تلو الآخر وكل واحد قال ما يعرفه وما لا يعرفه وبعد ١٠ أيام دمرت حياتى تماما خرجت إلى الشارع من جديد وعدت إلى البيت وبدأت رحلة علاج لعلها تصلح شيئا مما دمره «أمن الدولة»، لكن ما أصابنى فى نفسى يحتاج إلى معجزة من السماء حتى يتم إصلاحه.

كاتب المقالة :

تاريخ النشر : 06/04/2011

من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammdfarag.com